ومن مقدرة فى البلاغة والفصاحة والبيان والسياسة ، ومن مكانة فى الشجاعة وقيادة الجيوش ، هالها أمره وأذهلها خطره ، فانصرف بعضهم إليه وانصرف بعضهم عنه ، ووقف له شعراء يتصدون للهجوم عليه ، كما وقف شعراء فى الدفاع عنه وامتداحه .

وقد كان هذا المديح أول الأمر يقتصر على امتداح خصاله وشمائله ورسالته ، وهو حى ؛ فلما قضى انصرف الشعراء إلى الثناء عليه وتعداد صفاته والإشادة بالدين والإسلام . ونحن إنما نعد هذا من المديح لأنه يتوجه بكلامه إلى النبى كأنه موجود حى يناديه ويناجيه فيسمعه ويلبيه ، ولأنه يحقق مبادئ هذا الفن ، من تمدّح لشجاعته واستحسان لأخلاقه ومزاياه وإعجاب بصباحة وجهه ، فقد قال الصفدى فى شرح لامية العجم يصف المديح : « وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح » وقد رأينا كيف مدح الشعراء ملوكهم وأمراءهم وحكامهم ، فوقفوا عند هذه الصفات ؛ ولذلك لن يضيرنا أن هذه القصائد قيلت بعد وفاته ، فهى فى مديحه . وأما ما كان من أبياتها فى الأسف لفقده والبكاء لذهابه فقد طرحناه لأنه فى الرثاء ، وله كتاب مخصوص به .

جاءنا أن النابغة الجعدى أنشأ قصيدة طويلة مدح فيها رسول الله فقال :

أتيتُ رسولَ اللهِ إذْ جَاءَ بالهُدى ... ويَتْلُو كتاباً كالمجرَّة نيّرا
أُقيم على التَّقْوَى وأَرْضَى بفعلها ... وكنتُ من النَّار المخوفة أَحْذَرَا

فالرسول جاء بالهدى ودين الحق يتلو القرآن نيرا كالمجرّة فى السماء ، يأمر بالتقوى والفعل الجميل ، وقد آمن النابغة وقام بالدين خوف النار المخوفة .

وجاءنا كذلك أن الأعشى مدح الرسول بقصيدته الدالية ، يريد بها وجه النبىّ ، لكن قريشاً صرفته عن لقائه فى رواية يعرفها المتأدبون ، ليس هنا محلّ بسطها ، فانصرف عنه وبقيت القصيدة فى مديحه يقول فيها :